

المذلل

الأدب الصوفي الجزائري وحياة الششثري

1- مفهوم الأدب الصوفي.

2- الأدب الصوفي في الجزائر قبل القرن الثامن للهجرة.

أ. مقدماته.

ب. مصادر نشأته.

3- التعريف بالشاعر.

أ. نبذة عن تاريخ حياته.

ب. مكانته وفلسفته الصوفية.

ج. مؤلفاته.

أولاً: مفهوم الأدب الصوفي:

حين تتكاثف ظلمات المادية، فتنشوش الرؤى، وتضطرب الخطى، وتلتبس الأهداف، ويهرع الناس إلى الروحانية، يجدون في رحابها أماناً يبدد ما يخامرهم من مخاوف، وسكينة تمحو ما يساورهم من شكوك، ويجدون قبل ذلك كله ذواتهم التي دمرها العجز عن مسايرة الجيل الذي ينتمون إليه، والعصر الذي يعيشون فيه.

وفي ظل هذه الروحانية ينشأ التصوف، أو تتجدد أنسجته وخلاياه، إذ هو لا يعدو أن يكون أحد ردود الفعل الحتمية لطغيان المادية على المظاهر العامة للحياة.

وتتسم الكتابة عن التصوف في الغالب الأعم بالتعصب الشديد له أو عليه؛ فالمتعصبون له يعتبرونه الحل الأمثل الذي لا محيص عنه للخلاص من أزمانها الخائفة، والطريق الذي لا عوج فيه نحو الطهارة والنقاء. والمتعصبون ضده، يصورونه طمسا آثماً لسلامة الفطرة، ورفضاً واضحاً لمنطق العقل، واستعلاءً مقبهاً على مبادئ الدين، وانسحاباً مخزياً من معركة الحياة.

ويعد التصوف الإسلامي القسم الرابع من أقسام الفكر الإسلام: (1)

1/ فلسفة فلاسفة الإسلام: وهي ما نسميه باسم الفلسفة المشائية الأساسية، ومثلها في العالم الإسلامي كل من: الكندي، والفارابي، وابن سينا في المشرق، وابن رشد، وابن باجة، وابن طفيل في المغرب العربي.

2/ فلسفة الكلام: أو ما ندعوه علم التوحيد أو علم أصول الدين.

3/ فلسفة أصول الفقه: الذي أضافته المدرسة الإسلامية الحديثة في أواخر القرن العشرين.

4/ التصوف الإسلامي: بأنواعه المختلفة (الرسائل، الأمداح النبوية، الأحزاب، الحكم، الأوراد، الحكاية الكرامية، شعر التوسلات، الابتهالات، الرسائل الإخوانية، والزهد، وشعر التصوف السني، وشعر التصوف الفلسفي).

(1) ينظر: محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1974، ص 65.

والصّوفية عند بعضهم: «طريقة روحية معروفة عند بعض الشعوب والحضارات القديمة، وهي نزعة سلوكية، وليست فرقة سياسية أو مذهبية. ومن الجائز عند الصّوفية من المسلمين أن يكون الصّوفي على أي مذهب من المذاهب: شيعيا أو معتزليا أو سنيا...»⁽¹⁾ وجاز عند البعض الآخر أن تكون «طريقة ابتدائها الزهد الكلّي...»⁽²⁾. وإذا كان التصوف في نظر هؤلاء طريقة وسلوكا، فإنه عند ابن خلدون «علم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل عند سلف الأمة وكبارها من الصّحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والإنفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة»⁽³⁾.

وعده بعض الدارسين «علم النفس أو علم آفات النفس»⁽⁴⁾، ذلك أنه يقوم على أسس علمية وأخلاقية؛ فأما الجانب الأخلاقي العلمي فنحن نجد له أمثلة واضحة وممتازة في الصدر الأول من العصر الإسلامي، فلقد كان الرسول μ والصّحابة والتابعون وما تنطوي عليه حياتهم الروحية من أقوال تعد منبعا أصيلا وصدرا حقيقيا لهذا الجانب العملي الأخلاقي.

والصّوفية الحقيقيون هم علماء النفس الجديرون بهذا اللقب، وأطباء القلوب الخلقون بهذا الوصف. فلنسمع ما يقول أحدهم في تدرج النفس في سيرها نحو الكمال: «فإن الرّوح مادامت متظلمة بالمعاصي والذنوب والشهوات والعيوب سميت نفسا، فإذا انزجرت وانعقلت انعقال البعير سميت عقلا، فما زالت تنقلب في الغفلة والحضور سميت قلبا، فإذا اطمأنت وسكنت واستراحت من تعب البشرية سميت روحا، فإذا تصفت من غبش

(1) الموسوعة العربية العالمية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ج15، ص208.

(2) عبد الرحمن بن الجوزي: تلبيس إبليس، تحقيق محمد بن الحسين ومسعود عبد الحميد السعدي، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية، بيروت، 2002، ص186.

(3) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ضبط وشرح وتقديم: محمد الإسكندراني، دار الكتب العربي، بيروت، 2005،

ص432.

(4) محمد جلال شرف، دراسات في التصوف الإسلامي، ص66.

الحس سميت سرًا لكونها صارت سرًا من أسرار الله، حين رجعت إلى أصلها وهو سرّ الجبروت»⁽¹⁾.

فالتصوف يمتاز بنوع خاص من المعرفة لا نجدها في الأنواع الأخرى من الفكر الإنساني والإسلامي، ذلك أنها تدور في فلك حقيقة الحقائق جميعاً (معرفة الله سبحانه وتعالى)، وأنها تقدم للإنسان طريقة للسّمّو الروحي لا يجدها المرء في مجال معرفي آخر. فهي «ذوقية كشفية إلهامية باطنية، تأتي القلب مباشرة دون إعمال العقل، ودون استخدام الحواس»⁽²⁾ فهي إذا معرفة خاصة فردية، ونشاط روحي خاص بكل صوفي، لذلك فليس من الضروري أن تتشابه البدايات والنهايات عند الصّوفية، بل إن الصّوفي هو ابن وقته ترد عليه الأحوال في وقت غير تلك التي ترد عليه في وقت آخر.

والثابت أن موضوع التصوف «هو الذات العلية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها... وقيل موضوعه النفوس والقلوب والأرواح لأنه يبحث عن تصفيتها وتهذيبها وهو قريب من الأول لأن من عرف نفسه عرف ربه»⁽³⁾.

وإذا كانت الصّوفية هي كل ذلك، فالأدب الصّوفي في حقيقته «فن من فنون الأدب كالوصف والغزل والمدح والرثاء، مجراه الشعر في الأكثر والنثر في الأقل، وهو في صورته الشعرية والنثرية فن وجداني خالص، ينبع من أربعة فنون: فن الشعر الديني عامة، وفن الغزل بنوعيه: العذري والمادي، ومن الخمريات ومن الشعر المبني على الرمز»⁽⁴⁾.

فالأدب الصّوفي أدب حافل بالروح والبلاغة والفكر الحي المتجدد والوازع الديني القوي البناء، أدب يصدر عن نفوس استغرقتها الحب، وملأت جوانحها لواعج الأشواق، وتمثلت به الحداثة والرواة في كل مكان. أدب عميق وصادق يحكي التجربة الحية التي عاشها هؤلاء الصّوفيون بين الحلم واليقظة، وبين الأمل والألم، وبين المحن والمنح، وبين العبرات والنشوات، فهو يحكي حرارة المشاعر الإنسانية النبيلة، ومرارة الحرمان من نيل

(1) كلّمان باركس: يد الشعر، ترجمه وقدم له عيسى علي العاكوب، دار الفكر، الطبعة الأولى، دمشق، سوريا، 1998، ص10.

(2) محمد جلال شرف: دراسات في التصوف الإسلامي، ص68.

(3) ابن عجيبة الحسيني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم للعارف بالله ابن عطاء الله السكندري، ضبط وتصحيح عاصم إبراهيم الكيالي الدرقاوي، دار الكتب العلمية، ط1، 2005، ص16-17.

(4) عمر فروخ: التصوف في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، 1981، ص95.

المحب ما يتمناه. وهو أدب ينبض بالحياة والحب والظهر والسّمو وبالنور الوهاج المشرق بنفحات السّماء، أدب ينشأ في كل تلك الخيوط والخطوط.

ثانياً: الأدب الصّوفي في الجزائر قبل القرن الثامن الهجري:

أ- مقدمات الأدب الصّوفي في الجزائر:

برزت الخيوط الأولى للأدب الصّوفي في الجزائر مع ظهور الزهد عند الشاعر بكر بن حماد⁽¹⁾ الذي تأثر في رحلاته إلى المشرق وإلى إفريقيا (تونس) أين الشعراء والعلماء والمتصوفة، ومن أبرزهم بالقيروان: الزاهد الفقيه سحنون بن حبيب التنوخي⁽²⁾، فتجرع عنه مذهبه القائم على الزهد في الدنيا، والتعبد وفق الشريعة الإسلامية، إذ كانت أشعاره تتمحور حول محاسبة النفس والتذكير بالموت، كقول بكر بن حماد:

لَقَدْ جَمَحَتْ نَفْسِي فَصَدَّتْ وَأَعْرَضَتْ وَقَدْ مَرَقَتْ نَفْسِي فَطَالَ مُرُوقُهَا
فِيَا أَسْفِي مِنْ جَنَحِ لَيْلٍ يَفُودُهَا وَضَوْءِ نَهَارٍ لَا يَزَالُ يَسُوقُهَا
إِلَى مَشْهَدٍ لَا بُدَّ لِي مِنْ شُهُودِهِ وَجُرْعِ لِّلْمَوْتِ سَوْفَ أَدُوقُهَا
سَتَأْكُلُهَا الدِّيْدَانُ فِي بَاطِنِ الثَّوْرِ وَيَذْهَبَ عَنْهَا طَيْبُهَا وَخَلُوقُهَا⁽³⁾
وكذا أشعاره في الزهد وذكر الموت حين قال:

المَوْتُ أَجْحَفَ بِالدُّنْيَا فَخَرَّ بِهَا وَقَعَلْنَا فِعْلَ قَوْمٍ يَمُوتُونَ
فَالآنَ فَاكْبُؤُوا فَقَدْ حَقَّ الْبُكَاءُ فَالْحَامِلُونَ لِعَرْشِ اللَّهِ بِأَكُونَا
مَاذَا عَسَى تَنْفَعُ الدُّنْيَا مَجْمَعُهَا لَوْ كَانَ جُمِعَ فِيهَا كَنْزُ قَارُونَا⁽⁴⁾
وفي الجملة تعكس أشعار بكر بن حماد تجربته الزهدية التي عبر فيها عما يختلج في نفسه، والتي سمحت بتصنيفه ضمن الزهد الوجداني الذاتي⁽¹⁾. وقد دخل هذا الفن إلى

(1) هو عبد الرحمن بن حماد بن أبي إسماعيل الزناتي التيهرتي، من أشهر علماء الجزائر وأدائها في عهد الدولة الرستمية، ولد ونشأ بتيهرت سنة 200هـ، أخذ العلم بالقيروان والمشرق، كان عالماً بالحديث والشعر، توفي سنة 296هـ. عبد الرحمن الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 179/1.

(2) هو أحد قضاة المغرب، له كتاب "المدونة والمختلطة في الفقه" توفي سنة 240هـ. أبو العباس الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء من المائة السابعة ببجاية، تحقيق: راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص314.

(3) سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق أحمد كرم وآخرون، دار البعث، ط3، الجزائر، 2002، 93/2.

(4) سليمان بن عبد الله الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، تحقيق أحمد كرم وآخرون، 94/2.

المغرب الأوسط(الجزائر) مع الزاهد قاسم بن عبد الرحمن التيهرتي⁽²⁾ الذي تلقاه عن شعراء القيروان.

أما المظهر الثاني لأدب الزهد في هذه المرحلة المبكرة، فيعود إلى أواخر القرن الرابع للهجرة، عندما شارك الزاهد أحمد بن نصر الداودي المسيلي⁽³⁾ فقهاء القيروان بزعامة عبد الله بن أبي زيد القيرواني⁽⁴⁾ إثر ردهم على الطائفة البكرية التي مثلها عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله البكري، الذي ادعى رؤية الله في اليقظة⁽⁵⁾ بتأليف كتاب بعنوان "الردّ على البكرية" اقتفى فيه أثر بن أبي زيد القيرواني في الجدل حول إثبات كرامات الأولياء، فكان هذا المصنف أول كتاب في الأدب الصوفي في المغرب الأوسط(الجزائر) لم يذكر فيه الداودي كرامات الأولياء، إلا أنه تبنى موقف ابن أبي زيد القيرواني في التشدد على التصوف المائل إلى الشعوذة.

وفي السياق ذاته ظهرت مناهج زهدية متفرقة ارتبط أصحابها في علاقاتهم الأدبية بحواضر من العالم الإسلامي، فبينما ارتبط أبو محمد بن عبد الله التيهرتي⁽⁶⁾ برباط سوسة، واختص بفلسفة زهدية فكرتها المحبة والشوق، وثق أحمد بن مخلوف المسيلي المعروف بالخياط(ت393هـ) وعبد الله بن زياد الله الطنبلي (ت410هـ) صلتهما بقربطبة، فالتزم الأول المنهج العلمي القائم على المرابطة، واختص الثاني في أدب التنسك، في حين وسع أبو القاسم عبد الرحمن الهمذاني المعروف بالخرزاز الوهراني(ت411هـ) من علاقته بحكم رحلته العلمية التي استغرقت عشرين سنة، وشملت بيئات الزهد والتصوف كالبصرة وبغداد والحجاز ومصر وخراسان ونيسابور ثم الأندلس، صنع من خلالها طريقة زهدية جمع فيها بين الالتزام بالسنة النبوية والعلم والورع والسّخاء والمروءة⁽⁷⁾.

(1) ينظر: الطاهر بوناني: التصوف في الجزائر خلال القرنين السادس والسابع الهجري، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ص49.

(2) تلميذ بكر بن حماد، نسبه المؤرخون إلى تيهرت، وكان من أهل الحديث. الأزهر الرياضية، 100/2.

(3) من فقهاء تلمسان، توفي سنة402هـ. ينظر: أبو عبد الله بن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986، ص146.

(4) عالم نحوي، كان أستاذا بفاس، توفي سنة389هـ. ابن مريم: البستان، ص117.

(5) الهادي روجي ادري: الدولة الصنهاجية، ترجمة: مادي السّاطلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992، 337/2.

(6) قاض معروف بتيهرت، توفي سنة313هـ. الأزهار الرياضية، 86/2.

(7) ينظر: الطاهر بوناني: التصوف في الجزائر، ص25، 53.

كما استفاد أحمد بن واضح⁽¹⁾ من رحلاته إلى المشرق في القرن الخامس الهجري، تعكسها تلك المناظرات التي خاضها مع فقهاء بجاية والتي تمثل أحد أوجه الجدل بين الفقه وأدب الزهد⁽²⁾.

وفي المقابل تلقى أدب الزهد بالمغرب الأوسط جرعة قوية على يد النزلاء من الزهاد الأندلسيين ببونة، أين أثرى أبو عبد الملك مروان بن محمد الأندلسي⁽³⁾ نشاطه الزهدي بتأسيسه لرباط، درس فيه العلم وصنف فيه المصنفات، وحتى نهاية النصف الأول من القرن الخامس الهجري، كان أدب الزهد بالمغرب الأوسط يستمد أفكاره ومواضيعه من طرف القبائل الهلالية، وكذا من قرطبة والبصرة وبغداد والحجاز⁽⁴⁾.

وقد نتج عن هذا تياران زهديان: يعتمد الأول منهج المجاهدة العملية من خلال المرابطة في الثغور والسواحل من الخطر المسيحي، ويلزم الثاني بالزهد في الدنيا والاعتكاف على المجاهدات.

ب- مصادر نشأة الأدب الصوفي في الجزائر (المغرب الأوسط):

الثابت من الناحية التاريخية أن أدب الزهد إلى غاية نهاية النصف الأول من القرن السادس الهجري لم يكن يرقى في نصوصه المنظومة والمنثورة إلى مستوى يسمح بإدراجه ضمن أدب التصوف، إلا بعد أن شهد المغرب الأوسط خلال النصف الثاني من القرن نفسه (6هـ) دخول مجموعة من المصنفات الصوفية المشرقية والأندلسية والمغربية في فترات زمنية يصعب ضبطها ضبطا دقيقا مع الفقهاء والعلماء العائدين من المشرق، أو بواسطة صوفية المغربين الأدنى والأقصى الذين استقر بهم المقام بحواضر المغرب الأوسط، أو مع الأندلسيين المهاجرين إلى بجاية وتلمسان بقصد تجديد أنفاس الرحلة ذهابا

(1) هو أحمد بن واضح العباسي المعروف باليعقوبي من علماء الخمسين الأولى من المائة في الهجرة المعاصرة لأئمة بن رستم. الأزهار الرياضية، 17/2.

(2) ينظر: م ن، 17/2.

(3) هو رجل من أهل الحديث والرواية، رحل إلى المشرق وسمع من جماعة من المحدثين بمصر والحجاز، قتل بقرطبة سنة 457هـ. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 53.

(4) ينظر: الطاهر بوناني: التصوف في الجزائر، ص 59، 60.

وإيابا، أو بغرض الاستقرار. وكان لهؤلاء دور بارز في شرح وتبسيط محتوياتها للطلبة والمهتمين⁽¹⁾.

ومن أكثر المصادر التي نهل منها أدب التصوف أفكاره:

كتاب "الرعاية لحقوق الله" للحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ)، و"قوت القلوب" لأبي طالب المكي (ت،ق3هـ)، و"الرسالة القشيرية" لأبي القاسم القشيري (ت465هـ)، و"إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي⁽²⁾ (ت505هـ)، وهي مصنفات في التصوف السني تطرح الخطوات التي يقطعها السالك بواسطة المجاهدات للوصول إلى النحاة من عقاب الله، كما حدّدها كل واحد منهم (المؤلفين) في مصنفه، وإلى تقويم النفس وتهذيبها عن طريق الإرادة والرياضة لبلوغ مرتبة الأنبياء والقديسين والصالحين.

وقد أصبحت هذه المصنفات منذ النصف الثاني من القرن الخامس الهجري متداولة بين القراء في حلقات الدّرس بتلمسان وبجاية وقلعة بني حماد، حيث كان الصّوفي عبد السلام التونسي (ت486هـ)⁽³⁾ يدرس برباطه بتلمسان رعاية المحاسبي، ويدعو في أوائل القرن السادس الهجري إلى قراءة "إحياء علوم الدين"، وقد أفلح في تحسيس الوسط الفكري في تلمسان بأهمية الإحياء وقيمة أفكاره الصّوفية، وبهذه الطريقة شرع التلمسانيون في نسخ الإحياء وحفظه⁽⁴⁾.

وبقلعة بني حماد اشتهر الصّوفي أبو الفضل بن النحوي⁽⁵⁾ (ت513هـ) مدرسا للإحياء، حيث استنسخه في ثلاثين جزءا، فإذا دخل شهر رمضان، قرأ كل ليلة جزءا منه، ولشدة تمسكه بالإحياء نقل عنه قوله: «وددت أني لم أنظر في عمري سواه»⁽⁶⁾، واستطاع أن يؤلف من حوله كوكبة من القلعيين ينهجون أفكاره الغزالية.

(1) ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص146، 147.

(2) ينظر: الطاهر بوناني: التصوف في الجزائر، ص63.

(3) نزيل تلمسان، كان عالما وزاهدا من أكابر أولياء الله، لا تأخذه في الله لومة لائم، يلبس الصّوف، ويأكل الشعير من حرث يده، توفي سنة 486هـ. ينظر: ابن مريم: البستان، ص122.

(4) بنظر: ابن الزيات التادلي: التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أولدف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية، 1958، ص58.

(5) هو يوسف بن محمد أبو الفضل، ويعرف بابن النحوي القلعي نسبة إلى قلعة بني حماد، أخذ نفسه بالتشوف، وليس خ الصّوف، كان يشبه بالإمام الغزالي. له مؤلفات وقصائد شعرية، أشهرها المتفرجة. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص272.

(6) أحمد بن محمد بن القاضي: جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام بمدينة فاس، مطبعة الحجرية، 1981، ص346.

وظهر في بجاية أبو مدين شعيب⁽¹⁾ (ت594هـ)، حيث مكث بها خمسة عشر عاما، جعل من كتاب "الإحياء" أفضل كتب التذكير، وأكثرها قراءة في مجلسه، كما درس الرسالة القشيرية وأطلع الطلبة على رعاية المحاسبي.

أما معاصره أبو علي الحسن بن علي المسيلي (ت، أواخر القرن 6هـ)⁽²⁾ فقد نسج على منوال الإحياء كتاب "التفكير فيما تشتمل عليه السور والآيات من المبادئ والغايات" أحاط فيه بالفقه والتصوف حتى لقب بأبي حامد الصغير، وأضحى الكتاب متداولاً بين البجاويين، وغطى بشهرته شهرة "الإحياء"⁽³⁾ آنذاك.

وفي أواخر القرن الخامس الهجري وبداية القرن السادس، هاجر من تلمسان وجزائر بني مزغنة كوكبة من الأطر الزهدية إلى الأندلس للتمدرس على يد كبار صوفيتها.

إذ قصد كل من المحدث يوسف بن علي بن جعفر التلمساني، والفقير حجاج بن يوسف الجزائري باشبيلية، وأخذوا بها "الإحياء" عن القاضي أبي بكر بن العربي (ت543هـ)، بينما قصد كل من الفقيه أبي الحسن بن أبي الفكون (ت557هـ)⁽⁴⁾ والزاهد أبي موسى عيسى بن حمود التلمساني مرسية، وأخذوا بها عن القاضي أبي علي الصّدي، وأخذوا عنه "آداب الصّحبة" للسلّمي و"رياض المتعلمين" و"حلية الأولياء" لأبي النعيم الأصفهاني، ولما عادوا إلى مواطنهم عملوا على نشرها بين الطلبة والمريدين⁽⁵⁾.

ويكاد دور صوفية المشرق الطارئین على المغرب الأوسط يكون بسيطاً في جلب أو تبسيط مضامين المصنفات الصّوفية، في حين شكلت حركة هجرة صوفية الأندلس إلى المغرب الأوسط على مدار القرنين السادس والسابع عاملاً رئيساً أدى إلى دخول المصنفات

(1) هو شعيب بن الحسن الأندلسي التلمساني، أقام بفاس، وسكن بجاية، حيث كثر أتباعه حتى خافه السلطان يعقوب المنصور، توفي بتلمسان عام 594هـ. له مؤلفات منها: مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب، وله أشعار كثيرة. ينظر: محمد أحمد درنيقة: معجم شعراء الحب الإلهي، دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2000، ص180.

(2) عاش في القرن السادس، كان يسمى أبا حامد الصغير، جمع بين العمل والورع والعلم، له المصنفات الكثيرة منها: التذکر في علم أصول الدين، البراس في الرد على منکر القياس. ينظر: الحفناوي: تعريف الخلق برجال السلف، موفم للنشر، الجزائر، 68/1.

(3) ينظر: ابن الزيات التادلي: التشوف، ص59.

(4) أديب قسنطيني، انكب منذ صغره على الدرس وانقطع إلى الإطلاع على أسرار اللغة وكشف مكنونات البلاغة، وكان يحب التجول، نظم الموشحات والقصائد. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص280.

(5) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1988، ج2، ص91.

الصّوفية ورواجها، فألف عبد الحق الإشبيلي (ت581هـ)⁽¹⁾ ببجاية مجموعة من المؤلفات الزهدية، أبرزها كتاب "الزهد" و"الردّة" و"التهجد" و"أشعار زهدية في أمور الآخرة"، فضلا عن كتابه "العاقبة في ذكر الموت". وقد ظلت مؤلفات عبد الحق الإشبيلي خاصة كتابه الأخير مصدرا زاهديا نهل منه الصّوفية واعتمده مرجعا في كتاباتهم حيث اعتمد عليه عبد الرحمن الثعالبي (ت875هـ)⁽²⁾ في تأليف كتابه "العلوم الفاخرة"⁽³⁾.

ولما اضطرت أوضاع الأندلس- بفعل نشاط الثوار الطامعين في الحكم، وتعاضم نشاط حركة الاسترداد المسيحي التي بلغت أوجها عام 633هـ شرق الأندلس- تقاطر أعلام الأندلس فرارا نحو بجاية وتلمسان، وحملوا معهم مصنفات التصوف، فأدخل أبو الحسن عبد الله النفيري الشاطبي(ت642هـ)⁽⁴⁾ مختصره على "حلية الأولياء" لأبي النعيم الأصفهاني، وعمل على تلقينه للطلبة، كما درس أبو الحسن علي أحمد المعروف بابن السراج الإشبيلي⁽⁵⁾ "قوت القلوب" لأبي طالب المكي و"الإرشاد" لأبي المعالي، وبسط مضامينها للطلبة⁽⁶⁾، فضلا على تلقين أبي العباس أحمد بن خالد المالقي(ت660هـ)⁽⁷⁾ للطلبة كتاب "الإشارات والتنبيهات" لابن سينا⁽⁸⁾، الذي تضمن فلسفة التصوف الإشرافي.

وإلى جانب هذا الدور قاموا بإدخال إنتاجهم الصّوفي إلى بجاية وتلمسان، ونجحوا في تشكيل اتجاهات صوفية لم تكن معروفة بالمرّة في المغرب الأوسط، مثل محي الدين بن عربي، الذي يصمّم بعض الباحثين إدراج مؤلفاته ضمن قائمة المصنفات التي أدت دورا

(1) هو أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الشبيلي، ولد سنة 510هـ، وتوفي عام 582هـ. رحل على بجاية حيث تخيرها وطنًا، من تأليفه الأحكام الكبرى في الحديث، الأحكام الصغرى في الحديث كذلك، علم التذكير، التهجد. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص78.

(2) هو عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري، كان إماما علامة مصنفًا، اختصر تفسير ابن عطية في جزئين، وشرح ابن الحاجب الفرعي في جزئين أيضا، وله تفسير الجواهر، أقام في بجاية، توفي سنة 875هـ. ينظر: الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، 73/1، 74.

(3) ينظر: ابن مخلوف: شجرة النور الزكية، في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، ط1، لبنان، 1349، ص156.

(4) هو أبو الحسن بن عبد الله بن فتوح النفيري، من أهل شاطبة، كان من أهل العلم والفضل والدين، له شعر بارع وأدب يافع، من مؤلفاته: اختصار حلية الأولياء لأبي نعيم. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص178.

(5) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن قاسم الأنصاري، من أهل اشبيلية، استوطن بجاية، كان على سنن الفقهاء، توفي عام 657هـ. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص182.

(6) ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص176.

(7) من أهل مالقة، قرأ بالأندلس ثم بمراكش، وهو الشيخ الفقيه الأصولي، كانت له مشاركة في الطب والحكمة والطبيعات والإلهيات، توفي سنة 660هـ ببجاية. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص100.

(8) ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص178.

بارزا في نشأة اتجاه "وحدة الوجود" في المغرب الأوسط من منطلق تأليفه لكتاب "مواقع النجوم" قبل دخوله بجاية⁽¹⁾.

وهناك من الصّوفية من اضطروهم طبيعة المناخ الفكري السائد في الأندلس إلى مغادرتها نحو تلمسان، ومن هؤلاء: أبو إسحاق بن دهاق المعروف بابن المرأة (ت610هـ) مؤلف كتاب "شرح أسماء الله الحسنى" و"شرح كتاب محاسن المجالس" لأبي العباس بن العريف (ت536هـ)، وأبو علي بن أحمد الحرالي (ت638هـ) مؤلف كتاب "شمس مطالع القلوب وبدر طوابع الغيوب". كما أدى وجود الصّوفيين: أبي محمد عبد الحق المعروف بابن سبعين (ت669هـ)⁽²⁾، وتلميذه أبي الحسن الششتري في بجاية منذ سنة 264هـ إلى انتشار مؤلفاتهما وتواشجهما وأشعارهما في الوحدة المطلقة بين نخبة من طلبة بجاية. أما عن أشهر مؤلفاته ابن سبعين، فهي "بد العارف وعقيدة المحقق المقرب الكاشف وطريق السالك المتبتل العاكف" وكتاب "لمحة الحروف" وكتاب "كنز المغرمين في الحروف والأوقاف" ورسائل عبارة عن نصائح صوفية⁽³⁾.

أما الششتري فسيأتي الحديث عنه مفصلاً.

ثالثاً: التعريف بالشاعر:

أ- نبذة عن تاريخ حياته: هو علي بن عبد الله النميري الششتري اللوشي، ويكنى أبا الحسن، والنميري نسبة على نمير بطن من بطون "هوزان"، والششتري نسبة إلى شستر، وهي قرية بوادي "آش" بالأندلس، واللوشي نسبة إلى "لوشة" قرية بالأندلس. ولد سنة 610هـ، حفظ القرآن منذ صغره، ثم سلك مسالك علماء المسلمين في دراستهم، فدرس الفقه ثم انتقل منه إلى الحكمة، وانتهى به المطاف إلى دراسة طرق الصّوفية علماً وعملاً⁽⁴⁾. يشير الغبريني إلى منهج دراسته هذه حين يقول: «الفقيه الصّرفي

(1) ينظر: المقري: فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج2، ص176.

(2) ابن سبعين هو: قطب الدين بن عبد الحق بن سبعين، من مواليد مرسية بالأندلس سنة 613هـ، عاش في المغرب، واشتهر أنه من أكبر صوفية الوحدة فيها، وبسبب ذلك كفره فقهاء المغرب، فلجأ إلى المشرق وجاور مكة حتى وفاته سنة 669هـ. الموسوعة الصوفية، ص270.

(3) ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص148.

(4) حول حياة الششتري: ينظر الكتب الآتية:

- ديوان الششتري: تحقيق علي سامي التشار، دار المعارف الإسكندرية، ط1، 1960، ص06.
- حاجي خليفة: كشف أنطوان، إعداد: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1994، 711/5.

من الطلبة المحصلين والفقراء المنقطعين، له علم بالحكمة ومعرفة بطريق الصّوفية»⁽¹⁾. أما الفلسفة فقد درسها على يد أستاذه (ابن سبعين)، وأمّا معرفته بالشعر وخاصة الموشحات والأزجال الأندلسية فكانت على جانب كبير من العمق.

بدأ الششتري حياته تاجرا متجولا، ورحل إلى بلاد عدّة في الأندلس والمشرق والمغرب، وهي إحدى الرياضيات الروحية عند الصّوفية، وفي إحدى رحلاته إلى بجاية حضر حلقة المدينة-أتباع أبي مدين شعيب- وهناك لزم مجلس القاضي محي الدين بن سراقه⁽²⁾، وأخذ عنه التصوف.

أدى الششتري فريضة الحج عدّة مرات، وخلف أستاذه ابن سبعين في الإمامة على الفقراء والمتشردين، وكان يصحبه في أسفاره ما يزيد عن أربعمئة فقير، وإمامته كانت لطريقة جديدة هي الششترية.

قضى الششتري الفترة الأخيرة من حياته متنقلا بين سواحل الشام ومصر، وقد عاش فترة من الزمان في دمشق، ومن المرجح أيضا أنه شارك في الحرب ضد الصليبيين⁽³⁾. وقد مرض في رحلته الأخيرة إلى مصر، واشتدت علّة مرضه بالقرب من دمياط في مكان يقال له (الطينة)، وقد سأل الشيخ (الششتري) أتباعه عن المكان فلما قيل له (الطينة)، لفظ عبارته الشهيرة: «حنت الطينة إلى الطينة»، ولما توفي حمله أتباعه على أعناقهم إلى دمياط حيث دفن فيها سنة 668هـ.

ب- مكانة الششتري وفلسفته الصّوفية:

- عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصّوفية، مكتبة المدبولي للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 2003، ص339.
- الغبريني: عنوان الدراية، ص210.
- يوسف زيدان: شعراء الصّوفية المجهولين، دار الجيل، ط2، بيروت، 1996، ص62.
- محمد أحمد درنيقة: معجم شعراء الحب الإلهي، دار ومكتبة الهلال، لبنان، ط1، 2000، ص208.
- المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، 185/2.
- أحمد بن عجيبة: اللطائف الإيمانية الملكوتية والحقائق الإحسانية الجبروتية، دار الكتب العلمية، ط1، لبنان، 2006، ص70. وكتب أخرى

⁽¹⁾ الغبريني: عنوان الدراية، ص211.

⁽²⁾ هو أبو عبد الله محمد بن علي الطائي الحاتمي المعروف بابن سراقه، ويلقب محي الدين ويعرف بابن العريب، أصله من مسرية، سكن اشبيلية، له من المؤلفات الكثيرة كلها في علم التصوف أشهرها: "الفتوحات المكية"، ومن شعره كتاب ترجمان الأشواق. ينظر: الغبريني: عنوان الدراية، ص158.

⁽³⁾ ديوان الششتري، ص6.

لعل أول من تنبه إلى أهمية الششتري كمفكر صوفي من بين مؤرخي الفكر الإسلامي الأقدمين هو تقي الدين بن تيمية، فقد ذكر هذا العد والممتاز للتصوف الإسلامي- الششتري- على أنه واحد من كبار صوفية وحدة الوجود الذين أثروا أبلغ الأثر في إقامة المذهب ونشره، وإشارة ابن تيمية إلى الششتري على أنه: «صاحب الأزجال»، تدل دلالة واضحة على ما كان يرى في شعره العامي من خطورة⁽¹⁾.

أما عن أهميته في الأندلس وشمال إفريقيا، فقد وضحا لنا ابن خلدون، وهو بصدد التكلم عن لسان الدين بن الخطيب، حين قال أنه- يعني ابن الخطيب-: «ينحو منحى الششتري في الزجل»⁽²⁾، وهذا يدل على ماكان للششتري من أهمية واعتبار كبيرين في الأندلس جعله رأس مذهب في نظم الأشعار الملحونة.

ويعطينا ابن عباد الرندي صورة واضحة عن قيمة الرجل وشعره في نص هام له، إذ يقول: «وأما أزجال الششتري ففيها حلاوة وعليها طلاوة، وأما تحليتها بالنغمة والصوت الحسن فلا تسل، فإن قدرتم أن تفيديوا منها ما وجدتموه فافعلوا ذلك»⁽³⁾.

واشتهرت الششترية كطريقة متميزة عن طريقة أستاذه ابن سبعين، على الأقل في اعتمادها على السماع والموشحات التي كان يؤلفها الششتري، حتى ابن الرندي دعا إلى جمع تراث الششتري الشعري الإنشادي، وهاجم ابن سبعين لغموضه، غير أنه كان يدافع عن أستاذه ابن سبعين ويقول: «إنهم يقولون ذلك لقصورهم عن فهم الشيخ»⁽⁴⁾. وهو قول يتفق مع مبدأ ضرورة أدب المرید مع الشيخ في كل وقت.

وفي مصر كان الششتري يتردد على الأديرة، ويتلقى بالرهبان، وردد ذلك في شعره، واعتبر نفسه من الشاذلية⁽⁵⁾، وورث رباطه الشاذلية من بعده، وأنشدوا موشحاته. ويتضح أثر المدينة في الششتري، فلقد تبرأ من مذهب الحلول والاتحاد في أواخر حياته، تحت تأثير هذا المذهب⁽¹⁾.

(1) م ن، ص 6.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 550.

(3) الديوان: ص 07.

(4) م ن، ص ن.

(5) طريقة أبي الحسن الشاذلي، والذين نهجوا نهجه، وتقوم على الأخذ بعلم الله الذي تركه على رسوله والافتداء بالخلفاء والصحاب والتابعين والأئمة والتمسك بالكتاب والسنة. عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية، ص 805.

وكان من المحتمل أن يبقى الششتري مدينيا طيلة حياته لولا حادثا معينا غير الاتجاه الروحي الباطني للرجل تمام التغيير، وجعله يتجه بكلية نحو التصوف الفلسفي، وأن يعتنق مذهب وحدة الوجود في صورته العاربية، وهو مذهب ابن عربي في اعتبار الوجود واحدا، وسواء أكان هذا الوجود هو الله أم الإنسان فإنه واحد في مظهره وفي جوهره، وليس ثمة سواه. وهذا مذهب شيخه ابن سبعين.

أما هذا الحادث، فهو مقابله لابن سبعين في بجاية سنة 648هـ، وتذكر الرواية أن ابن سبعين لما وجد الششتري متراوفا بينه وبين أبي مدين شعيب، دعاه إليه بكلمات صوفية رهيبة: «إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى أبي مدين، وإن كنت تريد ربّ الجنة فهلم إلي»⁽²⁾، جعلت الششتري ينجذب إلى "مغناطيس القلوب" و"إكسير الذوات"، فطلب منه أن يعرفه أصول الطريق ويقلبه تلميذا له. فما كان من ابن سبعين إلا أن طبق عليه القاعدة الصوفية الخاصة بضرورة تخليص نفوس المرید من الغرور والتكبر، وهو ما يعرف عندهم باسم "كسر حدة النفس". ومع أن الششتري كان آنذاك وزيرا وعالما، فقد طلب منه شيخه أن يمسك علما ويدور في الأسواق متغنيا بعبارة: «بدأت بذكر الحبيب». وهو يلبس بردة بالية، وفعل التلميذ ذلك، ولازم شيخه ملازمة تامة، وأخذ عنه علوم التحقيق الذوقي، وحقائق تجلي الذات الإلهية في كل ذرة من ذرات الكون⁽³⁾.

وما زال أثر الششتري الصوفي باقيا حتى الآن في شمال إفريقيا، فقد أوصى السيد محمد الصديق- شيخ الطريقة الدرقاوية السابق- قبل وفاته ولده وخليفته في مشيخة الطريقة السيد أحمد الصديق بإنشاد قصائد الششتري في الحضرة. ويؤكد محقق الديوان (علي سامي النشار) خلال زيارته لمراكش الأثر العظيم للششتري في زوايا الصوفية بها.⁽⁴⁾

(1) الديوان، ص10.

(2) الديوان، ص07.

(3) ينظر: يوسف زيدان: شعراء الصوفية المجهولون، ص62.

(4) الديوان، ص07.

ولا يقتصر أثر الششتري في العصور الحديثة على مراكش وحدها، فشعره معروف في تونس ينشده صوفيتها، كما أن هناك آلة موسيقية تستخدم في الإنشاد الصوفي وغير الصوفي تنسب إلى اسمه، ويقال لها في العصور الحاضرة: "الششترية"⁽¹⁾.

وضمن المهرجان الذي أقيم بفاس للموسيقى العالمية العريقة، ولقاءات فاس التي أنشئت على التوالي عامي 1994 و 2001 في إطار التقاليد العلمية والفنية والروحية السائدة في المدينة، فقد اعتبرت هيئة الأمم المتحدة مهرجان فاس سنة 2001 من أهم التظاهرات التي ساهمت في ترسيخ حوار الحضارات بشكل ملحوظ.

وبين برنامج هذه الاحتفالات، البرنامج الموسيقي ليوم الجمعة 9 يونيو 2006 على الساعة 4.30 بعد الزوال احتوى أناشيد صوفية تكريما لأبي الحسن الششتري، وذلك بمتحف البطحاء⁽²⁾. ولعل هذا الاهتمام إن دل على شيء فإنما هو يدل على مكانة الرجل الشعرية والحضارية في المغرب.

كما حضى الششتري بعناية المستشرقين منذ القرن الثامن عشر للميلاد، إذ قام المستشرقان الهولنديان شولتنز (Shultens) و ويلمت (Willemet) بنسخ ديوانه بخطيهما، ويقول محقق الديوان بعثوره على النسختين أثناء زيارته لجامعة لندت صيف 1949⁽³⁾.

ج- مؤلفات أبي الحسن الششتري:

ترك الششتري كتباً في النظم والنثر، فأما كتبه النثرية فهي:

1- الرسالة العلمية، ولها مخطوطة بخط مغربي رديء بدار الكتب المصرية، اختصرها ابن ليون التجيبي في كتاب اسماء "الإنالة العلمية في الانتصار للطائفة الصوفية" وتوجد صورة فوتوغرافية لهذا المختصر في الخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية بخط مغربي.

2- المقاليد الوجودية في أسرار الصوفية، ولها أيضا صورة فوتوغرافية في الخزانة التيمورية.

(1) م ن، ص 17.

(2) موقع منارة بوابة العرب، مقال مهرجان 12 للموسيقى العلمية الراقية.

www.arabe.menara.ma/includArNX/print.asp? Article-id=1862& categorie=&l module salon/54k.20/05/2007.h:09.30.

(3) الديوان، ص 05.

- 3- الرسالة البغدادية، وهي رسالة قصيرة، ولها مخطوط في الاسكوريال.
 أما الكتب التالية فلم يعثر عليها- على حدّ العلم- حتى الآن:
- 4- العروة الوثقى في بيان السنن.
 5- إحصاء العلوم.
 6- ما يجب على المسلم أن يعتقدَه إلى وفاته.
 7- الرسالة القدسية في توحيد العامة والخاصة.
 8- المراتب الإسلامية والإيمانية والإحسانية⁽¹⁾.

وعن الثورة الشعرية التي أبدعها الششتري، فقد تجمع لدى محقق الديوان سبعة عشرة مخطوط للديوان، وهي في الأصل ديوانان: أحدهما كبير يحتوي نظمه الطويل، والآخر قصير يحتوي مقتطعات فحسب.

ويبدو أن الديوان الكبير يتضمن مذهب الشاعر الصّوفي الفلسفي، بينما ديوانه الصّغير في أكثره أورد ومقطوعات إنشادية لمبتدئي المريدين.

وقد جاء الديوان مرتبا على الشكل التالي:

1/ القصائد الكلاسيكية: مرتبة حسب قافية القصائد.

2/ الأشعار الملحونة: موشحات وأزجال.

3/ الأشعار المشكوك في صحة نسبتها للشاعر.

⁽¹⁾ ينظر: م ن، ص 13-15.